١٢- الخمــر

وكانت الخمريات من أكثر فنون الشعر ذيوعاً بين شعراء الأندلس، مخالفين فى ذلك التحريم الدينى للخمر. بيد أن ما كانوا يشربونه لم يكن كله من العنب، بل عرفوا صنوفاً أخرى من العصير كان شربها حلالاً بشروط، أو لم ينته الناس فى أمرها إلى رأى. وكانت عادة الشاربين أن يجتمعوا على الكئوس فى الصباح (الصبوح) أو مساءً (الغبوق)، وكانوا يبردون الخمر ويمزجونها بالماء. وأغلب ما يكون اجتماعهم للشراب فى قاعة واسعة أو فى رحبة الدار أو فى موضع من مواضع اللهو فى الرياض، وكان شطَّا الوادى الكبير عامرين بالمَنَازِه ومواضع الشرب. قال أبو الوليد الشقندى: «وزيادته على الأنهار كون ضفتيه مطرزتين بالمنازه والبساتين والكروم والأنشام، متصل ذلك اتصالاً لا يوجد على غيره. وأخبرنى شخص من الأكياس دخل مصر ـ وقد سألته عن نيلها ـ أنه لا تتصل بشطيه البساتين والمنازه اتصالها بنهر إشبيلية، وكذلك أخبرنى شخص آخر دخل بغداد. وقد سعد هذا الوادى بكونه لا يخلو من مسرَّة، وأن جميع أدوات الطرب وشرب الخمر فيه غير منكر، لا ناهٍ عن ذلك ولا منتقد، ما لم يؤدِّ السُّكر إلى شرٍّ وعربدة»(١)، فكانت مجالس الشراب تدور فى قوارب تتهادى على صفحة الماء بأشرعتها البيضاء، وقد أبدع فى صفة ذلك القاضى أبو الحسن بن لُبَّال ـ حاكم شريش ـ بقوله:

بِنَفْسى هاتيكَ الزوارقُ أُجريتْ	كَحَلْبَة خيــلٍ أوَّلاً ثم ثَانيَا
وقَدْ كانَ جيدُ النهرِ منْ قبلُ عاطلاً	فأمْسَى بهِ فى ظلمَةِ الليـلِ حَاليَا

(١) أبو الوليد الشقندى: «الرسالة» برواية المقرى: «نفح الطيب»، جـ٢، ص ١٤٣.

عَلَيهاالزهرِالشمعِزهرُكواكبٍ تُخالُ بِهاضمنَ الغديرِ عَوَاليَا

ورُبَّ مثارٍ بالجناحِ وآخرٍ بِرِجْلٍيُحاكى أرنبًاخافَبَازِيًا[(١)]

وكان يحدث شيء شبيه بذلك على ضفاف نهر إبْرُه أيام دولة بنى هود فى سرقسطة.

وكان من عادة الشعراء أن يوجِّهوا الدعوة إلى مجالس الأنس فى رقاع منظومة، ومن ذلك قول عبد العزيز بن القبطورنه يستدعى:

دَعاكَ خليلكَ واليومُ طَلْ وعارضُ خدِّ الثَّرَى قَدْ بَقَلْ

لقـدْرَيْنِ فاحَا وشَمـــَّــامةٍ وإبريقِ راحٍ ونعْمَ المحَـــلْ

ولَــو شَـــــاءَ زادَ، ولَـكنَّهُ يُلامُ الصَّــديقُ إِذامااحتفَلْ[(٢)]

ولم تكن تلك المجالس مجرد اجتماعات للشراب، وإنما حلقات شعرية أدبية، وكانت توضع أمام الندماء مناضد صغيرة خفيفة الحمل، توضع عليها أطباق حافلة باللحم الطرى وأطايب الطعام، ثم يوضع أمام كل ضيف طبق وفاكهة وكأس وإبريق[(٣)]، وفى وسط المجلس تصفُّ القناديل وتلقى أشعتها على أصص النرجس وأوراق النبات البديعة وأكوام الفاكهة المتألقة. وكان الساقى المنسرح القوام يمر بين السُّمَّار يصب لهم فى الأكواب نبيذًا أبيض من أباريق بلورية تبدو وكأنها «جمان ضم ذهبًا سائلاً» أو بأوانٍ جميلة ملئت خمرًا أحمر يصب منه فى الكئوس؛ وتصافح أذن الساقى عبارات الغزل يضفيها عليه السُّمَّار. وعندما

(١) على بن سعيد: «رايات المبرزين»، ص ٢٣. وقد توفى أبو الحسن بن لبَّال فى عام (٦٨٣هـ/ ١٢٨٤م). انظر عنه: الضبى: «بغية الملتمس»، رقم ١٨٧٤. ولم ترد الأبيات فى النص وإنما أشير إلى رقمها فى المختارات وهو ٣٦، وترجمها المؤلف كذلك فى ترجمته للرايات:
cf: E. G. Gómez, El libro de las banderas, p. 153.

(٢) ابن خاقان: «قلائد العقيان»، ص ١٧٢، ١٧٣.
ولم ترد القطعة فى النص، بل أشير إلى رقمها فى المختارات وهو ١٦.

(٣) راجع الوصف الذى يقدمه الجهشيارى - فى كتاب «الوزراء»، ص ٢٤٠ - للمأدبة.

ينصبُّ الشراب من فم الإبريق يبدو للسُّمَّار وكأنه «عنق بطة فى فمها عقيق»، وكان الحبب الطافى على وجه الكئوس يلهم الشعراء أخيلة وتشبيهات بارعة. وكان المجلس ينقضى بين تقارض الشعر وارتجاله، يتخلل ذلك بين الحين والحين شدو جارية مغنية يصاحبها عزف العود والطنبور والقيثارة، وتتوزع أحاسيس السُّمَّار بين زُهر الأحلام وشطحات السكر ومشاعر الهوى، ويصور لنا ابن هانئ الإلبيرى مجلسًا من هذه المجالس أحسن تصوير فى قصيدته المعروفة بقصيدة النجوم:

أليلَتنا إذْ أرسلتْ واردًا وَحْفَا ... وبتنا نَرى الجوزاءَ فى أُذنها شَنْفَا
وباتَ لنا ساقٍ يصولُ على الدُّجَى ... بشَمعة صبحٍ لا تُقَطُّ ولا تُطفَا
أغَنُّ غضيضٌ خَفَّفَ اللينُ قَدَّهُ ... وأثقلتِ الصَّهباءُ أجفانَهُ الوطفَا
ولم يُبْقِ إرعاشُ المُدامِ له يداً ... ولم يُبْقِ إعناتُ التثنِّى له عطفَا
يقولونَ حقفٌ فوقَهُ خيزرانةٌ ... أما يعرفونَ الخيزرانةَ والحقفَا
جَعلنا حَشايانا ثيابَ مُدَامنا ... وقَدَّتْ لنا الظلماءُ منْ جلدها لُحفَا
فَمنْ كبدٍ تُدنى إلى كبدٍ هَوًى ... ومنْ شَفَةٍ توحى إلى شَفَةٍ رَشفَا
بعيشكَ نَبِّهْ كأسَهُ وجُفُونَهُ ... فَقَدْ نَبَّهَ الإبريقُ منْ بعدما أغْفَى
وقَدْ فَكَّتِ الظلماءُ بعضَ قُيودِها ... وقَدْ قامَ جيشُ الليلِ للفجرِ واصْطفَّا
وَوَلَّتْ نُجُومٌ للثُّرَيَّا كأنَّها ... خَواتمُ تَبدو فى بَنانِ يدٍ تَخفَى
... إلخ (١)

وينقضى الليل على ذلك هزيعًا بعد هزيع حتى يطلع الفجر، فكانت ليالى الأندلس صاحية لا تهجع، حتى لقد شكا بعض مَنْ وفدَ على الأندلس من المشارقة عدم استطاعتهم النوم هناك.

---

(١) على بن سعيد: «رايات المبرزين»، ص ٥٥، ٥٦. وهذه الأبيات مطلع قصيدة مدح الشاعر بها جعفر بن على.